الباب الثالث

الحركات الاجتماعية والعمل السياسى

الفصل الحادى عشر : الصراع والتغير الاجتماعى ٠

الفصـل الثانى عشر : الاطار السياسى للتكنولوجيا ٠

الفصـل الثالث عشر : تأملات فى الحـركة الطلابيـة ٠

الفصـل الرابع عشر : مستقبل الراديكاليـة ٠

الفصل الحادي عشر

الصراع والتغير الاجتماعي (١)

ان صياغة نظرية سوسيولوجية تتناول الصراع مانزال تمثل هدفا بعيد المنال · ولقد أشار عدد من الدارسين الى قلة الاهتمام بهذا الموضوع منذ مطلع هذا القرن وحتى العقد الماضى · فعلى سبيل المثال نجد لويس كوزر Coser فى مقدمة كتابه « وظائف الصراع الاجتماعى »(٢) The Functions of Social Conflit يذهب الى أنه برغم اهتمام علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل (وعلى الأخص سمول Small وكولى Cooley) بقضية الصراع الاجتماعى ، الا أن علماء الاجتماع المحدثين الذين كتبوا خلال خمسينيات القرن العشرين لم يولوا هذه القضية اهتماما يذكر ؛ بل انهم حينما اضطروا لمناقشة الصراع نظروا اليه على أنه ظاهرة مرتبطة دائما بالتفكك الاجتماعى · والواقع أن ذلك يتسق ـ الى حد كبير ـ مع التصور الوظيفى الشائع عن طبيعة المجتمعات الانسانية · ولقد أشار عالم آخر هو الاستير بوكان Buchan فى معرض مناقشته للصراعات الدولية الى أن « دراسة الحرب والسلام لم تنل حتى وقت قريب الا اهتماما محدودا ، خاصة اذا ما قورنت بدراسة المشكلات الاقتصادية ··· واننا مانزال نفتقد حتى الآن نظرية شاملة فى هذا المجال برغم المبررات القوية التى تدافع عن هذا الموقف ··· »(٣) ·

لكن ذلك لايعنى بطبيعة الحال انعدام الاهتمام بظواهر الصراع

---

(١) Reprinted from John C. McKinney and Edward A. Tiryakian (eds), Theoretical Sociology (New York, 1970)

(٢) (New York, 1956).

(٣) Ware in Modern Society :-An Introduction (London, 1966), P. XII.

الاجتماعى وعلى الأخص خلال الفترة اللاحقة على ظهور الدراسات الهامة التى قام بها مؤسسو علم الاجتماع الكلاسيكيون خلال القرن التاسع عشر • فلقد عالجت الماركسية ـ التى تعد النظرية الاجتماعية الأساسية خلال القرن الأخير ـ الصراع وعلى الأخص الصراع الطبقى بوصفه خاصية أساسية تميز المجتمع الانسانى • وبرغم ذلك فان الدراسة الفعلية للصراع الاجتماعى لم تتقدم كثيرا ، كما أن البحوث التى تناولت مختلف صور الصراع الطبقى ، فضلا عن الحربين العالميتين ، ماتزال محدودة للغاية • والواقع أنه منذ منتصف خمسينيات هذا القرن بدأ العلماء الاجتماعيون يكتشفون ـ وبشكل جدى ـ أهمية الصراع • ان ذلك يمثل اهتماما متأخرا نسبيا بالطابع الذى يميز القرن العشرين ، ففيه نشبت الحربان العالميتان ، واشتدت المواجهة الايديولوجية ، وظهرت الى حيز الوجود ديكتاتوريات قوية وحركات ثورية وحروب قومية ، فضلا عن امتلاك وسائل التدمير الجماعى من خلال الحرب النووية • وهكذا بدأ بعض علماء الاجتماع يتحولون عن النظرة الجزئية للمجتمعات بوصفها بناءات على قدر كبير من التجانس والتكامل لاتصيبها الا انحرافات ضيئلة ومحددة ، ليتبنوا نظرة أكثر اكتمالا تقوم على وجود تعايش بين العناصر المحدثة للتكامل وتلك المؤدية الى التفكك كوسيلة لفهم التطورات التاريخية التى تمر بها المجتمعات والعلاقات التى تنشأ بينها ، والواقع أن هذه النظرة الأخيرة تقترب الى حد كبير من تلك التى أشار اليها زيمل Simmel قبل أكثر من نصف قرن من الزمان حين قال : « لاتوجد وحدة اجتماعية تنعزل فيها التيارات التى تعمل على تماسك الأفراد عن تلك التى تؤدى الى تباعدهم • ان تصور وجود جماعة جاذبة متجانسة تماما هو تصور بعيد عن الواقع ، كما أنه لا يعبر عن طبيعة الحياة الاجتماعية ••• ولكى يكتسب المجتمع أيضا طابعه المميز ، فانه بحاجة الى توافر قدر من الانسجام والتنافر ، والتعاون والتنافس ، والتأييد والرفض »(٤) •

---

(٤) From Georg Simmel's essay Der Streit, First published as Chapter 4 of his Soziologie (Leipzig, 1908).

=

بيد أن هذا الاعتراف بالأهمية الاجتماعية للصـراع ليس كافيا من وجهة نظر علم الاجتماع • ان أى انسان يعيش فترة ستنييات هـذا القرن يستطيع أن يدرك ـ بشكل مباشر أو من خلال وسائل الاتصال الجماهيرى ـ وجود صور مختلفة من الكفاح المسلح فى آسيا وأفريقيا اللاتينية ، وأشكال مختلفة من تمرد الزنوج داخل المدن الأمريكية ، فضـلا عن الاضرابات والاحتجاجات التى يعبر عنهـا الطلبة فى دول مختلفة • ان مثـل هذه الظواهر جـديرة بأن تلفت نظر الانســان العــادى (وكذلك العــالم الاجتماعى) الى أهميـة الصراع والدور الذى يلعبـه فى تشكيل الواقع الاجتمـاعى • ومن الطبيعى أن نتوقع من العالم الاجتمـاعى شيئا يفوق مجرد اقرار الحقائق القائمة • فماذا نتوقع من عالم الاجتمـاع ـ بصفة خاصة ـ القيام به فى هـذا المجال ؟ لا شك أننا نتوقع منه الكثير ؛ ونعنى بذلك الاهتمـام بالمشكلات الأساسية للنظرية السوسيولوجية التى تتناول الصراع • ومن بين هـذه المشـكلات تسجيل مختلف أشكال الصراع ، وتحديد معدلات نشوب الصراع ومـداه ، واكتشاف نمـط التوازن بين الانقسام والصراع من ناحيـة والتكامل والانسجام من ناحية أخـرى ، ودراسة أسـباب الصـراع (وتتبع الدور الذى يمكن أن تلعبـه العوامل الاجتماعيـة والسيكولوجية والبيولوجية فى هــذا المجـال) ، وأخيرا النتائج المترتبة على الصراع •

أنمـاط الصراع

اهتم علمـاء الاجتماع خـلال القرن التاسع عشر بمناقشة بعض المشكلات السابقة ، كما نلمس اهتماما حديثا بها خلال السنوات الأخيرة، ولنتناول أولا ما اسهم به العلماء الأوائل من أفكار يمكن أن تشكل بدايات

ويلاحظ أن اقتباسنا هنا وكذلك اقتباساتنا التالية تعتمد على الترجمة الانجليزية التى قام بها كورت وولف Wolff تحت عنوان « الصراع » Conflict ، نيويورك ، ١٩٥٥ • هذا وقد قام البيون سمول Small بنشر ترجمة بعض أجزاء كتاب زيمل فى المجلة الدولية لعلم الاجتماع American Journal of Sociology (1904) • ولقد اهتم سمول اهتماما كبيرا بمشكلة الصراع وتأثر فى ذلك ـ وبشكل مباشر ـ بنظريات ماركس Marx وجمبلوفتش Gumplowicz وزيمل Simmel

نظرية اجتماعية فى الصراع فمن الملاحظ أن بعض هؤلاء العلماء قد فرقوا ـ وبطريقة رسمية ـ بين أنماط الصراع ، وان كنا نجد تأكيدا على التفرقة بين الصراع الدولى (الحروب بين الأمم أو الامبراطوريات أو الجماعات القبلية) والصراع الداخلى (الكفاح الثورى والحروب الأهلية) أما الأهمية النسبية لهذين النمطين من الصراع فقد خضعت لوجهات نظر مختلفة · فعلى سبيل المثال نجد كونت Comte وسبنسر Spencer قد اهتما اهتماما كبيرا بالصراعات الدولية (وعلى الأخص بين ما يسمى بالمجتمعات العسكرية والصناعية) ، كما نجد بعد ذلك مناقشات هامة لدور هذه الصراعات فى كتابات كل من جمبلوفتش Gumplowicz واوبنهايمر Oppenheimer أما ماركس فقد أبرز أهمية الصراع الداخلى (أى الصراع الطبقى) بحيث لاتتضمن نظريته الاجتماعية ؛ اشارات تذكر للدور الذى يلعبه الصراع الدولى · بيد أن هناك محاولات ماركسية لاحقة سعت الى اقامة نظرية فى الامبيريالية والحرب تمثلها كتابات لينين Lenin وهيفردنج Hilferding وروزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg وآخرون ومع ذلك فان الطابع الأساسى الذى يميز هذه الكتابات هو تأكيدها للصراع بين الطبقات ·

وعلى الرغم من أهمية التفرقة بين الصراع الداخلى والخارجى ، الا أن ذلك لا يعد أمرا كافيا(٥) · اذ أن هناك فروقا فى مدى شدة الصراع ومدى اعتماده على التهديد باستخدام القوة وغير ذلك من مظاهر نوعية · ولقد فرق زيمل Simmel بين الصراع والمنافسة ، ذاهبا الى أن الأخيرة (أى المنافسة) تمثل شكلا غير مباشر للصراع حيث يقول : « نستخدم مصطلح الصراع للاشارة الى تلك الجهود المتوازية التى قد يبذلها طرفان متنافسان للحصول على شىء واحد »(٦) الا أن زيمل Simmel قد حاول بعد ذلك تحديد بعض الملامح المميزة للمنافسة وعلى

---

(٥) ويمكن أن نعمم ذلك على كل الجماعات الاجتماعية ، وبالتالى يمكن التمييز بين الصراعات الداخلية والصراعات الخارجية التى تنشأ داخل الجماعات او بينها · ولقد استخدم كوزر Coser هذه المصطلحات فى مناقشته · انظر كتابه السالف الاشارة اليه ·

(٦) مقتبس من الفصل الثانى من كتاب « **الصراع** » ص ص ٥٧ ـ ٨٦ ·

الأخص تلك التى لا تحدد نتيجتها الهدف النهائى ، بحيث أن كل متنافس يسعى الى تحقيق الهدف دون استخدام قوته أو البدء بابراز العداوة · وفى اطار الصراع المباشر (الداخلى والعالمى على السواء) تظهر أساليب مختلفة تبدأ بالتأثير الفكرى ، وتوسيع الدعاية ، وممارسة الضغوط الاقتصادية والسياسية لتنتهى باللجوء الى العنف والتدخل المسلح · ويعد الصراع الصناعى أحد السمات المميزة للمجتمعات الحديثة ، كما أنه يتميز بخصائص معينة · ففى بداية مرحلة التصنيع فى المجتمعات الغربية ، كان الصراع الصناعى يحدث على فترات مختلفة كما أنه كان عنيفا فى معظم الأحيان (وعلى الأخص فى الولايات المتحدة الأمريكية) · أما فى المجتمعات الصناعية المتقدمة الآن فان مثل هذا الصراع قد أصبح أكثر حدوثا وأدق تنظيما لكنه أقل ميلا للعنف · ولم يعد الصراع الصناعى الحديث مقصورا على أمور صناعية أو اقتصادية خالصة بسبب تعقد الحياة الاجتماعية المعاصرة · ولقد أشارت نظرية ماركس الى أن مدى الصراع الصناعى قد يتسع ليشمل المجال السياسى بما فى ذلك تكوين طبقة عاملة ثورية · وعلى الرغم من أن مجرى الأحداث الفعلية لم يؤيد بدقة تنبؤات ماركس (وخاصة فيما يتعلق بنمو الحركة الثورية) ، الا انه قد أتاح الفرصة لاثارة تساؤلات تتعلق بمدى الصراع الصناعى وطابعه المميز · فمن الواضح الآن أن التهديد باستخدام القوة لم يعد بعيدا عن أى صراع صناعى خطير حتى ولو تم ذلك فى ظروف تتميز بقدر كبير من السلام الاجتماعى ·

ان هذه المحاولات الرامية الى تصنيف صور الصراع الاجتماعى تهدف فى نهاية الأمر الى تيسير دراسة هذه المشكلة واخضاعها للبحث الدقيق · ومن الطبيعى أن تفترض هذه المحاولات وجود خصائص عامة تميز كل أشكال الصراع الاجتماعى وتربط فيما بينها · ان الصراع قد ينشأ نتيجة لوجود عنصر مشترك يميز الطبيعة الانسانية كما أشار زيمل Simmel حين قال : « من المستحيل انكار وجود غريزة القتال التى تتخذ باستمرار وجودا سابقا »(٧) · ولقد أشار الى هذه النقطة

---

(٧) Simmel, op. cit; P. 29.

عدد من العلماء المعاصرين الذين سنتناولهم فى مواضع لاحقة · ويمكن القول أن هناك خصائص عامة تميز البناءات الاجتماعية وتؤدى ـ بالضرورة ـ الى حدوث الصراع · ولسوف أنتقل على الفور لمناقشة هذه القضايا ·

قيـــاس الصراع

لعل التصنيف الأولى الذى ناقشناه قبل قليل يمكننا من الانتقال الى مرحلة متقدمة من الدراسة النظرية ؛ وأعنى بها الكشف عن مدى انتظام الصراع الاجتماعى فضلا عن شدته ودوامه · ويتطلب ذلك وجود قدر كبير من الشواهد التاريخية الكمية المتعلقة بمختلف أنماط الصراع · والمشكلة التى تواجهنا فى هذا المجال هى أن الدراسات التى تعنينا ما تزال قليلة ومتناثرة · ولقد أشرنا من قبل الى أن الحرب والصراع الصناعى يمثلان أهم أشكال الصراع على الأقل من وجهة نظرنا الخاصة · ومن بين الرعيل الأول من علماء الاجتماع نجد كونت Comte وسبنسر Spencer يناقشان أهمية الحرب · بيد أن النتائج التى توصلا اليها لم تستند الى مقارنات كمية خاصة عندما أبرزا الدور التدميرى الذى تؤديه الحروب بالنسبة للمجتمعات الصناعية · ويمكننا توجيه انتقادات مماثلة الى معظم الدراسات السوسيولوجية التى تناولت الحرب · ومن أقدم الدراسات الشاملة التى تناولت معدلات نشوب الحروب خلال الفترات المختلفة تلك التى ضمنها بيتريم سوروكين Sorokin المجلد الثالث من كتابه « الدنياميات الاجتماعية والثقافية (٨) Social and Cultural Dynamics بيد أن المقاييس التى استخدمها لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية مما أفقد استنتاجاته قدرا كبيرا من الصدق والواقعية · وبعد مرور عدة سنوات · نشر كوينسى رايت Wright دراسة تاريخية شاملة عن الحرب تحت عنوان « دراسة فى الحرب » A Study of War (٩) تضمنت قدرا كبيرا من البيانات الكمية · أما أكثر الدراسات الكمية دقة وصدقا فهى تلك التى

---

(٨) (Cincinnatai, 1937).

(٩) (Chicago, 1942), 2nd ed., 1965.

قام بها ريتشاردسون Richardson ونشرها تحت عنوان « احصـــاء النزاعات الميتة »(١٠) ، وهى دراسة تضم كمية هائلة من البيانات ، برغم أنها تغطى فترة محدودة (فيمـــا بين سنتى ١٨٢٠ و ١٩٤٩) · وفضلا عن ذلك فالدراسة تحاول الكشف عن مصاحبات الحروب ؛ أى الأحداث الاجتماعية الأخرى التى ارتبطت بنشوبها · وعلى الرغم من أن الدراسة لم تتوصل الى وجود ارتباطات موجبة ذات دلالة ، الا أنها أثارت الشكوك فى بعض التعميمات السطحية التى تتناول أسباب الحـــروب وظروف السلام وان كانت ـ مع ذلك ـ قد توصلت الى أن القرن العشرين يشهد انخفاضا فى معدل نشوب الحروب مقارنا بمعدل زيادة السـكان · ولا شك أن اجراء مثل هذه الدراسات على فترات تاريخية أخرى سيمكننا من التعرف على التحولات البعيدة المدى التى تطرأ على الحروب ·

أما دراسات الصراع فى المجال الصناعى فهى أيضا مخيبة للأمال وعلى الأخص فى مجال المقارنات الكمية الدقيقة ، وذلك على الرغم من أن كثيرا من الدول تنشر الآن احصاءات تتضمن معدلات حدوث الصراع الصناعى فضلا عن شدته ودوامه · وربما كانت أكثر الدراسات دقة فى هذا المجال تلك التى قام بها نويلز Knowles ونشرها تحت عنـوان : « الاضرابات : دراسة فى الصراع الصناعى »(١١) Strikes A Study of Industrial Conflict ، وهى دراسة تتناول المملكة المتحدة فيما بين سنتى ١٩١١ و ١٩٤٥ وتحاول ربط الاضرابات بالظواهر الاجتماعية الأخرى · والواقع أننا لا نجد دراسة مشابهة لدراسة نويلز Knowles فى الدول الصناعية الأخرى ، كما أن المحاولات التى تهدف الى المقارنة بين الدول أو بين الفترات التاريخية لا تزال قليلة للغاية · وفى هـــذا المجـال نجـد دراستين موجزتين : الأولى قام بهـا كلارك كير Kerr وأبراهـام سيجـل Siegel ونشرت تحت عنوان « الميل الى الاضراب

---

(١٠) (Pittsburg, 1960).
(١١) (New York, 1952).

داخل الصناعة : مقارنة دولية »(١٢) ، والثـــانية أجراها أرثر روس Ross وبول هارتمان Hartman وتناولت « الأنماط المتغيرة للصراع الصناعى »(١٣) · وتتضمن هاتان الدراستان بيانات كميـــة يمكن أن تشكل أساسا لعقـد مقارنات بين الدول الغربيـة فيما يتعلق بالصراع الصناعى · وتحـاول الدراســـة الأولى التعرف على مبررات وجـــود الاستعداد للاضرابات فى بعض الصناعات ، وتلك نقطة ناقشهـــا نويلز Knowles فى دراسته السالفة الذكر · أما الدراسة الثانية فتميز بين مختلف أنماط الاضراب الذى تقوم به جماعات مختلفة ، فضلا عن الاتجاهات البعيدة المدىلهذه الظاهرة ·ولقد توصلالدارسان الى أن ثمة ميلا لانخفاض معدلات الاضراب ، كما سجلا تغيرا طرأ على طابعه يتمثل فى اللجوء الى الاجتماع المتقطع بدلا من تطوير أساليب المساومة ، وتلك نقطة تمثـــل تغيرا فعليا قصير المدى ·

وحينما ننظر الى الصعوبات التى تنشأ عند قياس بعض الظـواهر كالحروب والاضرابات (برغم أنها قد تبدو خاضعة للتعريف والقياس) ، ثم نجد أن الدراسات التى تناولت هذه الظواهر ما تزال قليلة للغـاية ، حينئذ لن نندهش كثيرا اذا ما اكتشفنا أن الأنماط الأخرى من الصـراع الاجتماعى ما تزال مستعصية على التحليل السوسيولوجى · ويمكننا أن نثير فى هذا المجال عددا من التساؤلات · كيف يمكننا قياس مدى الصراع الطبقى فى المجتمع ؟ كيف نستطيع تحديد درجة المنافسة داخل المجتمع وقياس تقلباتهـــا عبر الزمن ؟ كيف نتعرف على التوازن بين القـــوى المؤدية الى التوازن وتلك المفضية الى الصراع داخل مجتمعات بعينها ؟ كيف نتمكن من عقد مقارنات بين مجتمعات فى هذا المجال ؟ وأخيرا كيف يمكن الربط بين هذه الظواهر وغيرها من الأحداث الاجتماعية ؟ الواقع أننا لا نجد اجابات واضحة على هذه التساؤلات · وأقصى ما يمكن قوله

---

(١٢) C. Kerr; A. Siegel "**The Interindustry Propensity to Strike : An International Comparison**"; in Arthur Kornhauser, Robert Dubin, and Arthur M. Ross : **Industrial Conflict** (New York, 1954),PP. 189 — 212.

(١٣) Arthur M. Ross and PaulT. Hartman, **Changing Patterns of Industrial Conflict**, (New York, 1960).

هو أنه فى حالات عديدة يجب الاعتماد على مجموعة من المقاييس غير المباشرة واستخدام مصطلحات غير دقيقة مثل « أكثر » « وأقل » · ففى دراسة الصراع الطبقى ـ مثلا ـ من المهم أن نأخذ فى الاعتبـــار بعض العوامل الهامة مثل تكوين نقابات العمال ، واتحادات أصحاب العمـل ، ومدى حدوث الصراع بأشكاله المختلفة وعلى الأخص العنف ، والتعبير عن الاتجاهات فى شكل منشورات أو صحف أو وسائل اتصال جماهيرى، وظهور الحركات السياسية ، وصياغة مذاهب سياسية متصارعة · ومن الممكن قياس بعض هذه الظواهر بدرجة كبيرة من الدقة ، بينما لا نستطيع تحقيق ذلك بالنسبة للبعض الآخر · ومع أن بعض هذه الصعوبات قـد يعود الى المشكلات النظرية التى يمكن أن تواجهنا عند دراسة ظـواهر كالطبقة والايديولوجية ، الا أننى أعتقد أن بالامكان عقـــد مقارنات بين مجتمعات مختلفة وفترات زمنية متباينة ، حينما نستطيـع تحـــديد كل المحكات اللازمة لذلك · واذا لم يتحقق ذلك ، فاننا سنضطر الى التسليم بأن نظريات الصراع لا يمكن اخضاعها للاختبار شأنها فى ذلك شأن النظريات الوظيفية (أو العضوية ان شئنا تعبيرا آخر) ·

أسباب الصراع

ان عدم القدرة على تحديد أنماط حدوث مختلف أشكال الصراع لم يحل دون ظهور نظريات تزعم امكانية تقديم تفسيرات سببية للصراع (وعلى الأخص الحرب) وذلك بربطه بظواهر أخرى · ففى حالة الحرب ـ مثلا ـ يمكن دراسة تأثير الامبريالية ، وزيادة عدد الســـكان ، والخصـائص القومية · والواقع أن مثل هذه النظريات لم تحقق نجاحا يذكر ، وان كنا لا نستطيع استبعاد فكرة التفسير السببى ذاتها · واذا ما نحينا جانبـــا فكرة البحث النظرى المنظم لأشكال الصراع وتقلباته ، يتبقى لنا اتجاهان أشرنا اليهما من قبل ، لكنهما ما يزالان بحاجة الى الدراسة ·

أما الاتجاه الأول فيبحث عن أســـباب الصراع داخـــل الطبيعة الانسانية ؛ أى أنه يفتش عما أطلق عليه زيمـــل Simmel « غريزة القتال » · وفى خطابات متبـــادلة بين أينشتاين Einstein وفرويد Freud حول كيفية منع الحرب ، نجد الأخير يؤكد وجـــود عزيزة

تدميرية أو عدوانية لدى الكائنات البشرية ، عزيزة لا يمكن كبحها ، على الرغم من أنها تواجه دائما عزيزة أخرى هى عزيزة التعاطف أو الحب(١٤) وتميل الدراسات البيولوجية والانثروبولوجية الحديثة الى تأييد فكرة وجود غريزة العدوان التى تنجم عن عملية الانتخاب الطبيعى ، تلك العملية التى تنتشر بين الفقاريات Vertebrates ، كما توجد لدى الرئيسيات Primates بما فى ذلك الانسان . ويذهب وشبيرن Washburn الى أن الناس « يرثون الجانب البيولوجى من العدوان » ، وأنه ينمو بفضل العادات والتقاليد . وفى ظل عالمنا الحديث المزدحم الذى يخضع للسيطرة الانسانية ، فان الرجل ـ على وجه الخصوص ـ يسعى الى تحقيق السيطرة ومن ثم العدوان(١٥) . وبالمثل نجد كونراد لورنز Lorenz فى كتابه له بعنوان « فى العدوان » On Aggression ينظر الى العدوان على أنه يمثل « خاصية القتال لدى الحيوان والانسان على السواء ، ذلك القتال الذى ينشب بين أفراد الفصيلة الواحدة » ، ويترتب عليه اعادة تقسيم المناطق ، والانتخاب الجنسى ، واقامة نظام للمراتب والمكانات الاجتماعية .

ومن الواضح أننا لا نستطيع تفسير الصراعات الفعلية تفسيرا كاملا فى ضوء الأفكار السابقة . ان اقامة نظرية تحاول تفسير غريزة العدوان لا يعنى أنها (أى النظرية) قادرة على تفسير دورات الصراع أو ظروف السلام ؛ أى الحالة التى يختفى فيها الصراع . وكل ما يمكن أن تفعله

---

(١٤) نشر خطاب فرويد فى أعمال المعهد الدولى للتعاون الفكرى التابع لعصبة الأمم . ثم أعيد نشره فى كتاب فرويد Collected Papers (1959) . وايضا فى كتاب برامسون Bramson وجوتالس Goethals بعنوان : الحرب : دراسات فى علم النفس وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا **War : Studies from Psychology, Sociology, Anthropology** (New York, 1964). ويضم الكتاب الأخير أهم الكتابات التى تناولت الحرب وعلى الأخص كتابات دى توكفيل De Tocqueville ووليام جيمس James وسمنر Sumner وبارك Park وسبنسر Spencer ومالينوفسكى Malinowski وفرويد Freud وريمون آرون Aron وآخرون .

(١٥) S. L. Washburn, " Conflict in Primate Society ", in Anthony de Reuck and Julie Knight (eds), **Conflict in Society** (London, 1966), PP. 11 - 12.

مثل هذه النظرية هو لفت الانظار للاستعداد الكامن للقيام بسلوك عدوانى ، وابراز أهمية الأساس البيولوجى لمثل هذا الاستعداد · فلكى نفسر الصراعات الفعلية ، علينا أن نحدد ـ بالاضافة الى هذا الشرط العام المتمثل فى الغريزة ـ أسبابا أكثر نوعية وخصوصية · ويمكن تحقيق ذلك اذا ما تبينا نظرية « المصالح » interests · فالصراع ينشأ حينما تتعرض منطقة معينة لغزو خارجى ، أو يتعرض الصغار لتهديد أجنبى ، أو يواجه نظام المكانة تحديات معينة (ومن الملاحظ أن النقطة الأخيرة تقترب الى حد كبير من النظرية الماركسية فى الصراع الطبقى) · وفى المجتمعات الانسانية نجد المصالح ذات الطابع البيولوجى تكتسب فى مرحلة لاحقة أهمية اجتماعية ، وتلك نقطة أكدها لورنز Lorenz حينما استخدم مصطلح « الحماس العسكرى » لوصف الصورة الانسانية للعدوان البيولوجى فى ضوء المصالح ·

وتدفعنا هذه الاعتبارات الى مناقشة الأبعاد السوسيولوجية لمشكلة العدوان · فلو افترضنا وجود الاستعداد للعدوان ، فهل نستطيع ـ حينئذ ـ تفسير الصراعات الفعلية باستخدام نظرية المصالح ـ أو تضارب المصالح ان شئنا الدقة ـ فى ضوء التصورات الماركسية عموما ؟ · الواقع أن نظرية ماركس تتميز عموما بقدرة تفسيرية أصيلة · فتصوره لعمومية الصراع الطبقى يمثل فى حقيقة الأمر نموذجا عاما · أما الجانب الأكثر أهمية فى نظريته فهو ذلك الذى يتناول الطبقات فى المجتمع الصناعى ، والذى يؤكد أن التباعد المتزايد بين مصالح البرجوازية ومصالح البروليتاريا (مع نمو وعى متزايد بهذا التباعد) سوف يؤدى الى زيادة الصراع بين الطرفين · ولنفترض هنا أنه قد أمكن دحض وجهة نظر ماركس ، واستطاع البعض البرهنة على أن الصراع الطبقى قد اختفى من المجتمعات الصناعية المتقدمة (وهو ما يعتقده كثير من علماء الاجتماع) برغم عدم توافر مقاييس دقيقة للحكم على مدى الصراع الطبقى ؛ اذا ما افترضنا ذلك كله فان علينا الآن تفسير اختفاء الصراع الطبقى فى ضوء القضية الذاهبة الى أن تباعد المصالح لا يرتبط ارتباطا وثيقا بالصراع ، أو أن تباعد مصالح الطبقات قد قل الى حد كبير ، أو أن هناك عاملا آخر قد أثر على

درجة الصراع · وربما أشرنا فى هذا المجال الى دراستنا الوصفية التى تناولنا فيها الدور الذى تلعبه القومية فى تخفيف حدة الصراع الداخلى(١٦) كذلك نجد رالف دارندورف Dahrendorf يقدم وجهة نظر معارضة لنظرية ماركس(١٧) ، ذاهبا الى أن شدة الصراع الطبقى فى المجتمعات الرأسمالية خلال القرن التاسع عشر تعود الى سيطرة الصراع السياسى على الصراع الصناعى · « اذ أن طرفى الصناعة وهما : رأس المال والعمل قد واجها بعضهما مرة أخرى ، ولكن فى شكل برجوازية وبروليتارية · ولقد تمت هذه المواجهة فى الميدان السياسى ··· »(١٨) ويذهب دارندورف الى أن « مجتمعات ما بعد الرأسمالية » تشهد انفصالا بين الصراعات الصناعية والصراعات السياسية ؛ ذلك أن الصراع بصوره المختلفة قد أخذ يتقاطع تقاطعا عرضيا مع مختلف النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية(١٩) وانطلاقا من هذا النقد لنظرية ماركس يشرع دارندورف فى صياغة نظرية فى الصراع أكثر شمولا ؛ نظرية تنهض على قضية مؤداها ؛ أن الصراع يمثل عنصرا ضروريا فى كل التنظيمات القائمة على الارتباط الملزم(٢٠) · واذا كان صحيحا أن هذه التنظيمات القائمة على الارتباط الملزم تعد أحد الملامح الأساسية للمجتمع الانسانى ، فسيترتب على ذلك أن الصراع يعد ضرورة عامة · والواقع أن هذا النموذج النظرى ـ الذى لا يشير بطبيعة الحال الى الصراع بين المجتمعات ـ يعبر عن النظرية البيولوجية للعدوان ، وذلك حينما يؤكد حدوث الصراع الداخلى عموما دون أن يقدم تفسيرا لشدة الصراع ونطاقه وتكراره ·ولكى

---

(١٦) **In: Classes in Modern Society** (New York, 1966; and London, (1965).

ويلاحظ ان وجهة نظرنا هذه تنطلق من تحليل زيمل Simmel لآثار الصراع الخارجى على التماسك الداخلى للجماعة الاجتماعية ·

(١٧) See **Class and Class Conflict in Industrial Societies** (Stanford, 1959).

(١٨) Ibid; P. 268.

(١٩) يعكس ذلك ـ وفى اطار خاص ـ ملاحظة زيمل التى طورها من بعده كوزر Coser فى مؤلفه « وظائف الصراع الاجتماعى » ، وهى أن تقاطع الصراعات قد يحول دون تفكك الجماعة من خلال نمط رئيسى من الانقسام ·

(٢٠) « ··· ان توزيع السلطة فى الهيئات والروابط هى « الشرط » النهائى لتكوين جماعات متصارعة » Dahrendorf, op. cit; P. 172

نتمكن من معالجة هذه القضايا فاننا ما نزال بحـاجة (بالاضـافة الى الدراسات السوسيوجرافية والاحصائية التى أشرنا اليها من قبل) الى دراسة مدى اختلاف الجماعات فيما يتعلق ببناءاتها (وكذلك نظام العلاقات الدولية الذى يضم مجتمعات بأسرها) ، تلك البناءات التى قد تشـجع على الصراع أو تحول دون حدوثه ٠

وتتضمن دراسـة زيمـل Simmel بعض التأملات حول الاختلافات البنائية ، مما شجع بعض الدارسين المعاصرين من أمثال كوزر Coser وفان دورن Doorn على تطويرها وتنقيحها(٢١) ٠ فلقد ذهب زيمل الى أن الصراع قد يزداد حدة داخل الجماعات المستندة الى العـلاقات الوثيقة (كجماعات القرابة أو الفرق الدينية) أو بين الجماعات التى تعبر عن قضايا أكثر مما تعبر عن مصالح ٠ بيد أن ملاحظات زيمل لا تعدو أن تكون مؤشرات دالة ؛ اذ أنها لا تصل الى درجة الاستنتاجات المحققة ٠ ولقد طور كوزر Coser القضايا التى أثارها زيمل وعالجها معـالجة تحليلية ، لكنه لم يحاول صياغة تعميمات تتناول معدلات حدوث الصراع فى ظل الظروف المختلفـة للبناءات الاجتماعية وأهدافهـا ٠ وبالمثل نجد فان دورن Doorn متـأثرا بزيمـل ـ يميـز بين التنظيم الذى يأخـذ شكل الائتلاف ، وذلك الذى يستند الى العقيدة أو المذهب ، ذاهبا الى أن التوترات التى تطرأ على التنظيم الأخير قـد تؤدى الى صـراع داخلى متطرف ٠ والواقع أن الشواهد الامبيريقية التى تدعم هذه القضية نادرة وسطحية الى حد يعيد ٠ هل نعلم تماما أن شدة الصراع تختلف اختـلافا كبيرا طبقا لنمط التنظيم ، أو أنها تختلف أيضا باختلاف جماعات المصالح ذات الايديولوجية الواحدة ؟ وهل من الممكن القول أن اختلاف أنمـاط الصراع وشدته ترتبط بمدى قوة التنظيمات القائمة على الارتباط الملزم ؟ ان من العسير الاجابة على مثل هذه التساؤلات (حتى ولو سلمنا بصحة

---

(٢١) Coser, op. cit; A. A. Van Doorn, " Conflict in Formal Organisations ", in **Conflict in Society**, op. cit, PP. 111 - 32.

صياغتها) دون الالمام بالتاريخ الطبيعى للصراع ، وهو أمر لا يزال بعيد المنال ٠

نتائج الصراع

ربما كانت دراسة أسباب الصراع أيسر من دراسة نتائجه ، على الرغم من أن الدراستين تواجهان نفس المشكلات والثغرات ٠ ولعل التلخيص الذى قدمه لويس كوزر Coser عن وظائف الصراع الاجتماعى يكشف عن الاتجاه الأساسى فى الدراسات السوسيولوجية « ٠٠٠ لقد ناقشنا مجموعة القضايا التى لفتت الانتباه لدراسة الظروف المختلفة التى فى ظلها يمكن ان يسهم الصراع الاجتماعى فى المحافظة على العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى وما يتطلبه ذلك من تكيف ومواءمه »(٢٢) ويمكن التعبير عن هذه « الوظائف الايجابية » للصراع ـ كما أشار زيمل الى ذلك ـ على النحو التالى : اذا ما ظل الصراع داخل الجماعة محصورا فى نطاق معين ، فانه قد يسهم فى تدعيم وحدة الجماعة : اما بأن يكون (أى الصراع) بمثابة صمام أمن أو بقدرته على اعادة الوحدة داخل الجماعة مرة آخرى أما الصراع بين الجماعات فانه قد يساعد على تعيين حدودها الاقليمية، كما أنه قد يدعم النسق الاجتماعى بأكمله وذلك من خلال الحفاظ على ميزان القوى بين الجماعات المختلفة ، فضلا عن أنه (أى الصراع) يسهم فى تقوية الوحدة الداخلية بين الجماعات المتصارعة ٠ ولقد أشار زيمل ـ على وجه الخصوص ـ الى الطريقة التى من خلالها تأسست الدول المركزية الحديثة نتيجة للحروب ، كما ألمح أيضا الى أن الاقطاعيات والطبقات قد تظهر وتتكون نتيجة للصراع ٠ ومن المعروف أن ماركس كان قد أشار فى وقت سابق الى فكرة مشابهة حينما أكد أن الطبقات تدخل فى الصراع ، لكنها تعد أيضا نتاجا له بوصفها جماعات واعية ٠ وفى حدود الأمثلة السابقة نجد زيمل يذهب الى ان الصراع يلعب دورا كبيرا فى احداث التغير الاجتماعى وتعجيله ، مؤكدا أن الجماعة التى لا تعرف الصراع تفتقد « أهم عمليات الحياة » والملاحظ أن الدراسات الحديثة

---

(٢٢) Coser, op. cit; P. 151.

لا تميل الى تأكيد مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الصراع والتغير الاجتماعى · وربما يعود ذلك الى أن هذه العلاقة تعد أحد الملامح الأساسية للنظرية الماركسية · وتزداد هذه النقطة وضوحا اذا ما ادركنا عزوف علماء الاجتماع عن دراسة الحركات الثورية خلال القرن العشرين ، الا اذا استثنينا منهم الذين تستعين بهم الحكومات لمواجهة الانتفاضات والثورات · ان الثورة ـ شأنها شأن الحرب وربما بدرجة أكبر ـ تثير بعض الاعتبارات الأخلاقية التى تتداخل مع أى تصور يمكن خلعه أو ربطه بالصراع ، وتلك قضية لم تنل نصيبها الضرورى من الدراسة · ومع ذلك كله فاننا نستطيع ادراك التأثير الذى بدأت تحدثه الحركات الثورية على الفكر الاجتماعى الحديث اذا ما تأملنا التصورات الحديثة لظاهرة الثورة(٢٣) ، وزيادة الاهتمام بالتراث النظرى الذى تركه الثوار المعاصرون من أمثال ماوتسى تونج Mao Tse - tung وشى جيفارا Che Guevara وفرانتز فانون Fanon وريجيس ديبراى Debray. ·

وقبل مناقشة هذه القضية يتعين علينا مناقشة بعض الجوانب الأخرى للعلاقة بين الصراع من ناحية والمحافظة على طابع الحياة الاجتماعية أو تغيرها من ناحية أخرى · لقد اهتم زيمل ـ شأنه فى ذلك شأن الرعيل الأول من علماء الاجتماع ـ بتوضيح المفاهيم ، وابراز العلاقات الممكنة أكثر من اهتمامه بتأكيد الارتباطات بين الظواهر · فعلى سبيل المثال نجد زيمل يذهب الى أن الصراع بين الجماعات يؤدى ـ فى معظم الأحيان ـ الى تدعيم التماسك الداخلى لهذه الجماعات ، لكنه (أى زيمل) يشير الى أن ذلك لا يحدث دائما · ولنستشهد على ذلك بمثال معاصر : من الواضح أن الحرب التى شنتها الولايات المتحدة فى فيتنام لم تسهم فى زيادة الوحدة بين أفراد المجتمع الأمريكى ، بل على العكس من ذلك أحدثت انقساما داخل المجتمع وصل الى درجة الصراع الحاد · ويمكننا أن نثير

---

(٢٣) Ralf Dahrendorf, " Uber einige Probleme der Soziologischen Theorie der Revolution, " **European Journal of Sociology**, Vol. 2 (1961); Hannah Arendt, **On Revolution** (New York, 1963); Carl J. Friedrich (ed)., " Revolution ", NOMOS, Vol. 8 (1967).

نقطة عامة فى هذا المجال تتعلق بمدى تأثير الهزيمة فى صراع خارجى على تماسك المجتمع عموما · فمن الملاحظ خلال القرن العشرين أن الثورات قد أتت بعد هزائم عسكرية فادحة · وهنا يبدو الارتباط غير دائم الحدوث: ذلك أن هناك هزائم عسكرية لم تعقبها ثورات ، كما أن هناك ثورات لم تقم نتيجة لهزائم عسكرية خارجية · ومن المعروف أن الثورة الصينية قد قامت بعد تحقيق نصر عسكرى · وهكذا يبدو صعوبة التوصل الى ارتباطات قوية بين وجود الصراع الخارجى ونتائجه من ناحية ، ودرجة التماسك الداخلى من ناحية أخرى · لذلك فنحن ما زلنا بحاجة الى صياغة النماذج النظرية التى قد تمكننا من التوصل الى أحكام امبيريقية أكثر دقة تتعلق بتأثير مختلف أنماط الصراع الخارجى على مختلف أنماط الجماعات الاجتماعية ·

والواقع ان العلاقة العامة بين الصراع والتغير الاجتماعى ما تزال بحاجة الى مزيد من الدراسة الدقيقة· فالصراع بين الجماعاتأو داخلها قد يؤدى الى تغير أو يسهم فى خلق استعداد للتغير من خلال اهتزاز أساليب الحياة السائدة · ولقد قال زيمل : « ··· خلال المراحل الأولى للحضارة الانسانية كانت الحرب هى الطريقة الوحيدة التى من خلالها يحدث اتصال أو احتكاك بالجماعات الأجنبية »(٢٤) كذلك فاننا نجد كثيراً من علماء الاجتماع يذهبون الى ان الحروب قد أسهمت فى توسيع نطاق المجتمعات القديمة ، كما أدت (أى الحروب) فى عالمنا المعاصر الى ظهور الدول بمعناها الحديث · ويعتقد بعض العلماء أن الحروب قد أثرت تأثيراً كبيرا على تطور التكنولوجيا ، وأسهمت ـ بالتالى ـ فى احداث تغييرات عميقة على المجتمعات · أما الحرب الحديثة التى تؤثر على أكبر عدد ممكن من سكان المجتمعات (والتى تعد الحرب العالمية الأولى بداية لها) فانها تؤدى الى نتائج سياسية هامة ابتداء من تحرر المرأة حتى توسيع مجال التشريعات الاجتماعية · وبنفس الكيفية يمكن القول ان الصراع الداخلى يؤدى الى حدوث تغيرات اجتماعية هامة · لقد تبنى ماركس ـ وكما

---

(٢٤) Simmel, op. cit; P. 33.

قال هو نفسه ـ وجهة نظر المؤرخين البرجوازيين الذاهبة الى أن أوربا الحديثة تعد نتاجا للصراعات الطبقية ، وأن المجال ما يزال مفتوحا لظهور صراعات طبقية جديدة تؤدى الى مزيد من التغيرات الأساسية فى المجتمعات الأوربية · ونحن لا نستطيع تجـــاهل الحقيقة الذاهبة الى أن الحركات السياسية الماركسية فى كثير من الأقطار قد أحدثت تحولات عميقة على البناءات الاجتماعية · كذلك فاننا لا نستطيع تجاهل الفكرة التى مؤداها : أن الصراع بين الاحزاب السياسية المنظمة فى الدول الصناعية وكذلك فى بعض الدول النامية ، مثل هذا الصراع كان بمثابة دافع لاقرار حقوق الأفراد فى الاجتماع والنقد والمعارضة ·

ومن أشكال الصراع التى اهتم بها زيمل ، نجد المنافسة التى لم تحظ الا بالقدر اليسير من الاهتمام · وتختلف وجهة نظره مع وجهة نظر الاشتراكين ، وبعض الليبراليين من أمثال جون سيتوارت ميل J. S. Mill الذاهبة الى ان المنافسة تؤدى ـ عموما ـ الى نتائج ضارة · ولقد أكد زيمل الدور الذى تلعبه المنافسة وهو « اكساب الأفراد الروح الجمـــاعية وعناصر الحضارة » · حيث يقول : « توصف المنافسة الحديثة بأنهـــا حرب الجميع ضد الجميع ، لكنها ـ فى نفس الوقت ـ حرب من أجـــل الجميع » · ويمكن أن تنطبق هذه العبارة على المنافسة الاقتصادية التى تهدف الى تحقيق أعلى معدلات الانتاج بأقل التكاليف الممكنة · « واذا ما أخذنا فى الاعتبار مبلغ كبر حجم المجتمع وتغلغل الروح الفردية فيه ، استطعنا تحديد أشكال المصالح التى تسهم فى تقوية الجماعات من خلال ارتباط أفرادها بها ، مما قـد تتضح نتائجه عنـد مواجهـة الصراعات والتوترات »(٢٥) ويمكن القول ان المنافسة والاقتصاد الحر اللذين سيطرا على رأسمالية القرن التاسع عشر قد أسهما فى زيادة معدلات النمـــو الاقتصادى · وفضلا عن ذلك فان التقدم السريع الذى حققه الاقتصـــاد الأمريكية · لكننا لا نستطيع ـ برغم ذلك ـ التوصل الى ارتباطات دقيقة الامريكى يمـكن تفسيره فى ضـــوء اتسـاع نطـــاق المنافســـة بين مدى المنافســة أو شـدة الروح التنافسية من ناحيـة ، ومعـدل النمـو

---

(٢٥) Ibid; PP. 63 - 4.

الاقتصادى فى المجتمعات المختلفة من ناحية أخرى · ونستطيع بعد ذلك اثارة قضية مختلفة عن القضايا السابقة مؤداها ؛ أن المنافسة قد تؤدى الى بعض النتائج الضارة · فاذا كانت تؤدى دورا حضاريا ـ كما يقول زيمـل وكما يعتقـد دوركايم DurKheim بأنها قادرة على خلق شبكة من الالتزامات المتبادلة ـ الا أنها (أى المنافسة) قـد تسهم فى زيادة معدلات الامراض العقلية والجرائم · لكننا ـ برغم ذلك ـ ما نزال بحاجة الى الكشف عن مدى الصدق الامبيريقى لهذه القضية ·

والواقع أن زيمل ومن أتى من بعده (من أمثال كوزر) قد اهتموا اهتماما كبيرا بتأكيد الوظائف الايجابية (بمعنى النتائج المفيدة) للصراع· ومن بين هذه الوظائف الايجابية أن الصراع يؤدى الى حدوث تغيرات توصف بأنها مفيدة عموما · وبغض النظر عن الحقيقة التى مؤداها ؛ أن الصراع قد يؤدى الى حدوث تغيرات قد ينظر اليها على أنها ضارة ، الا أن هناك جوانب أخرى للعلاقة بين الصراع والتغير يجب دراستهـا دراسة متأنية · اننا لا نستطيع البرهنة على أن كل أشكال التغير تحدث نتيجة للصراع ، على الرغم من تردد هذه الفكرة فى فلسفة التاريخ عنـد هيجل ، وفى نظرية ماركس الاجتماعية (مع بعض التحفظات) ، وبعض الأطر النظرية المشتقة منهما · فهناك تغيرات تحدث دون صراع ـ كتراكم المعرفة العلمية ـ ثم تثير بعد ذلك صراعا كما هو الحال فى الصراع بين العلم والدين ، وكذلك الصراع بين جماعات المصالح التى تأثرت بظهور التكنولوجيا الحديثة · كذلك فاننا لا نملك الدليل القوى على أن كل أشكال الصراع تؤدى الى تغير · فثمة صراعات ـ كما يقول زيمل ـ تسهم فى تقوية وتدعيم الحياة الاجتماعية القـائمة المستقرة ـ ففى المجتمعات القبلية نجد الصراعات التى تأخذ طابعا طقوسيا من شأنها تدعيم التضامن الاجتماعى والمحافظة على النظم القائمة(٢٦) وفضلا عما سبق فان من

---

(٢٦) On this see Max GlucKman, **Custom and Conflict in Africa** (Oxford, 1955; New York, 1964) and Subsequently **Politics, Law and Ritual in Tribal Societies** (Chicago, 1965).

الصعب الحصول على أمثلة توضح أن الصراع الحاد داخل الجمـاعة قد يؤدى الى معضلة تعوق أو تحول دون ظهرت تغيرات بدأت بالفعل ٠

المستقبل

سيطرت الاعتبارات العملية على الاهتمام الجديد بدراسة الصراع٠ ومن بين هذه الاعتبارات الرغبة فى ايجاد وسائل لتجنب الحرب النووية أو على الأقل التحكم فيها او الحد منها ٠ ولقد شجع ذلك على ظهـور ميدان جديد للبحث يطلق عليه « الدراسات الاستراتيجية » ، وهو ميدان يهتم بالظروف والمواقف المؤدية للحروب من ناحية وبنتائج الحروب من ناحية أخرى ٠ ويعتبر مؤلف ريمون أرون Aron « الحرب والسلام : نظرية فى العلاقات الدولية »(٢٧) Peace and War : A Theory of International Relations أفضل المؤلفـات تعبيرا عن هـذه الاتجاهات الجديدة ، فضلا عن تنوع وتعدد مناهج البحث المستخدمة فيه ٠ ويبدأ أرون Aron كتابه بمناقشة المفاهيم والتصنيفات التى تتطلبها دراسة الحرب والسلام والقوة والنظام الدولى وأنماط الحروب والسـلام ، ثم ينتقل بعد ذلك ـ فى البابين الثالث والرابع ـ لتقديم تحليل تاريخى للنظام الدولى فى ظل العصر النووى ، ومناقشـة بعض التقويمات الأخـلاقية للحروب ونتائجهـا السـياسية والاستراتيجية ٠ والواقع أن كثيرا من القضايا التى اثارها أرون فى الباب الأخير من كتابه قد خضعت لمناقشات عديدة ٠ ومن بين هذه القضايا تأثير مستوى التسليح (أو الاستعداد العسكرى عموما) على احتمالات الحرب ٠ ولقد صـاغ ريتشاردسون Richardson (الذى أشـرنا فى موضع سابق الى دراستـه عن أسباب الحروب) بعض النماذج الرياضية التى تتناول سـباق التسلح(٢٨) ، مطبقا احـداها على الفترتين اللتين سبقتا الحربين العالميتين ٠ وقبـل وفاته مباشرة كان ريتشاردسون يدرس سباق التسلح الثالث الذى بدأ ـ فى اعتقاده ـ عام ١٩٤٨ ؛ لكنه لم يتوصل الى نتائج محددة حـول

---

(٢٧) (New York, 1966). Originally published in French as Paix et Guerre entre Les Nations (Paris, 1962).

(٢٨) L. F. Richardson, **Arms and Insecurity** (Pittsburgh,1960).

نتائج هذا السباق · والواقع أن من الصعب التوصـــل الى استنتاجات محددة حول احتمالات سباق التسلح المؤدى للحرب بالاعتماد على مؤلف ريتشاردسون ؛ لكنه من المعقول القول بأن ثبات أو تخفيض معدل التسليح من شـأنه تقليل احتمـالات نشوب الحـروب ؛ لأن ذلك يعـد ـ أولا ـ دليلا على وجود اتفاق بين الأمم المتصارعة ، ولأنه قد يؤثر ـ ثانيـا ـ على المزاج العام السائد فى هذه الأمم · ولا شك أن ريتشاردسون قـد منح النقطة الأخيرة أهمية بالغة ·

وهناك قضية أخرى أثارها أرون تتمثل فى وجود بديل للحـــرب بوصفها وسيلة لتنظيم العلاقات بين الأمم الساعية لتحقيق مصالحهـــا القومية · وهنا يطرح أرون احتمالين : الأول هو السلام خلال القانون ، والثـــانى هـــو الســـلام من خـــلال الامبراطورية · وينطـوى كل من الاحتمالين على تضحيات متفاوتة من وجهـة نظر الســـيادة الوطنية · فالسلام من خلال القانون يمكن اعتباره توسيعا لنطاق الاتفاقيات الدولية القائمة ، لكن تحقيقه كاملا يتطلب ايجاد أجهزة تشريعية وتنفيذية وادارية عالمية تتخطى حواجز القوميات · أما السلام من خـــلال الامبراطورية فانه يعنى التضحية باستقلال الأمم الداخلة فى نطاقه ، وهو الأمر الذى يستحيل تحقيقه فى الوقت الراهن ، طالمـــا أن كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لا يقبل باقامة امبراطورية عالمية · وبالاضافة الى الاحتمالين السابقين هناك احتمال ثالث هو : السلام من خلال توازن القوى كما هو الحال فى عالمنا المعاصر · لكن النقطة التى يجب أن تثار هنا تتعلق بامكانية تحقيق توازن مستقر ودائم بين القـــوى المختلفة ، فضلا عن نوعية الظروف التى تسمح بايجاد هذا التوازن(٢٩) ·

أما آخر القضايا التى أثارتها الدراسات الحديثة التى أشرنا اليها فتتعلق بالدور الذى تلعبه الحروب فى السياسات الوطنية · هـــل يمكن اعتبار الحرب أداة رشيدة لتحقيق أهداف سياسية بالمعنى الذى يقصده

---

(٢٩) اذ ان اهم الشكوك المرتبطة بهذا الموضوع تتمثل فى التأثير الذى يمارسه التقدم التكنولوجى السريع وانتشار الأسلحة النووية ·

كلاوزفيتز Clausewitz ؟ الواقع أننا مضطرون هنا للتمييز بين أشكال مختلفة من الحروب · فهناك حروب التحرر الوطنى ، وحروب الثـــورة المضادة ، فضلا عن حروب محدودة اعتمدت على ما يمكن أن نطلق عليه « الاسلحة التقليدية » ومن الممكن القول بأن هذه الحروب رشيدة ، بمعنى أن المكاسب التى تحققها تفوق الخسائر المترتبة عليها · ولكن ماذا يمكن قوله عن الحرب النووية بين القوى الكبرى ؟ تتجه معظم الآراء فى مختلف أنحـاء العالم الى التسليم بأن حربا من هـذا النوع لن تكون رشيدة ؛ لأنها تعنى تدميرا متبـادلا ، ان لم نقل القضـاء على الجنس البشرى · ومع ذلك نجـــد هيرمان كان Kahn فى مؤلفـه « حـول الحرب النووية الحرارية »(٣٠) On Thermonuclear War يذهب الى ان التدمير الشامل الذى يمكن أن تخلفه مثل هـذه الحرب قـــد لا يكون عائقا يحول دون حدوثها · والملاحظ أن هذه الدراسات قـد بدأت تستعين بنماذج « نظرية اللعب » Game Theory بهدف تحديد نوعيـة الاستراتيجية · وبرغم ما تنطوى عليه هذه النماذج من جاذبية بالنسبة للعلماء الاجتماعيين وصناع السياسات ، الا أنها قد تعرضتت لانتقادات عديدة · ولقـد توصل أرون فى دراسته عن « الحرب والسلام » الى نتيجـة مستندة الى نقد عنيف للواقعية المفرطة التى تتميز بها هـذه النماذج ، كما طالب بالاهتمام بما أطلق عليـه « السياســة المتزنة » لا « الاستراتيجة الرشـيدة »(٣١) أما أناتول رابوبوت Rapoport فقـد أبدى تأييـده « لنظرية اللعب »(٣٢) ، لكنه ما لبث أن قـدم اطارا تصوريا(٣٣) يمكن من خـلاله تحديد القياس الاستراتيجى لمواقف الصراع(٣٤) ، مشيرا الى القيـود المفروضة على النظرية خاصة حينما يصعب تحديد الاختيار الرشيد ·

---

(٣٠) (Princeton, 1960).

(٣١) Aron, op. cit; Final Note.

(٣٢) A. Rapoport; Fights, Games and Debates, (Ann Arbor, 1960).

(٣٣) A. Rapoport; " Models of Conflict : Cataclysmic and Strategic ", in Conflict in Society, op. cit; PP. 259 - 87.

(٣٤) Ibid;. P. 277.

ومن بين العـوامل التى أدت الى النمـو السـريع فى الدراسات الاستراتيجية ، ازدياد الرغبـة فى السيطرة على الحرب فى ظـل العصر النووى ، وذلك استنادا لاعتبـارات عقليـة وأخلاقية(٣٥) والواقع أننا لا نلمس مثل هـذه السيطرة (أو حتى الالتزام الأخلاقى) بالنسبة للأشكال الأخرى من الصـراع الاجتماعى · ومن النتائج المترتبة على ذلك عزوف عدد كبير من علماء الاجتماع عن دراسة الثورات والصراعات الصناعية والعرقيـة ، وخلو النماذج النظرية للانساق الاجتماعية من أية أشـارة للدور الذى يمكن أن تلعبه التغيرات العنيفة ؛ مما خلق مشكلات عديدة عند دراسة ظاهرة الصراع · ان الثورات ـ بحـكم طبيعتها ـ لا تتسق مع النماذج النظرية التى تقوم على الفكرة الذاهبة الى أن الوظائف الايجابية للصراع تعمـل على المحافظة (مع تعديلات طفيفـة) على نسق اجتماعى معين · وطبقـا للنظرية الوظيفيـة فان أقصى ما يمكن أن يقال هـو أن فشل الثورة يعنى استمرار النظـام القائم وتدعيمه ، وأن نجاحها يعنى تحولا يطرأ على المجتمع ولما كان علمـاء الاجتماع ـ شأنهم شأن الناس العاديين ـ لا يزعمون عموما فى نشوب الحروب ، ثم يجدون بعـد ذلك دراساتهم تتضمن هدفا عمليا هو الحـد منها (أى الحروب) أو التحـكم فيها ، فانهم قـد يتخذون موقفا مؤيدا أو معارضا من الثورة (والأشكال الأخرى من الصـراع الداخلى) · وهكذا نجـدهم يدركون فجأة سيطرة الاتجاهات والالتزامات الأخلاقيـة على دراساتهم · لذلك نجـد علمـاء الاجتمـاع يدرسون الثورات بدرجات مختلفـة من التعاطف أو الرفض ، وقد يعملون كمستشارين للقادة الثوريين ، وان كانوا يقدمون ـ غالبا ـ النصح والمشـورة للمؤسسات التى تتولى مواجهة التمرد والعصيان · على أن ذلك لا يمنع علماء الاجتمـاع من دراسة هـذه القضايا الدقيقة التى تنطوى على قـدر كبير من الحساسيـة ، كما لا يحـول بينهم وبين

---

(٣٥) ربما كان لذلك بعض الاستثناءات القليلة · ففى مؤلف :
L. Lewin; Report from : Iron Mountain (ed)., New York, 1967.
نجد وجهة نظر تذهب الى أن بعض بنوك المعلومات والدوائر الأخرى فى الولايات المتحدة قد ابدت مزيداً من الاهتمام بمخاطر السلام ؛ أى مشكلة ايجاد بدائل ملائمة لما أطلق عليه الوظائف الحيوية للحرب فى المجالات الاقتصادية والسياسية والسوسيولوجية والديموجرافية والثقافية ·

التعبير عن وجهة النظر التى تنطلق منها بحوثهم وكتاباتهم ، مما قد يمنح دراساتهم طابعا انسانيا(٣٦) والواقع أن مفهوم « الوظائف الايجابية للصراع » قد يكون أقل تعرضا للنقد ، اذا ما استخدم للاشارة للتحولات الثورية تماما كما يستخدم للاشارة الى التغيرات التدريجية أو الحفاظ على النظام الاجتماعى القائم ، واذا ما تمكنا من تحديد الوظائف السلبية المقابلة ومنحناها أهميتها الضرورية · وباستطاعتنا بعد ذلك توجيه انتقادات عديدة لوجهة النظر الذاهبة الى أن التعاطف مع الحركات السياسية والثورات يحمل مضمونا ايديولوجيا ، وأن ذلك تهديد للموضوعية السوسيولوجية ، بينما لا يبدو هذا التهديد واضحا فى حالة الدفاع عن الأوضاع القائمة · وبعبارة أخرى فان وجهة النظر هذه تؤكد أن دراسة النظام الاجتماعى تستند الى دعائم علمية أقوى من تلك التى تستند اليها دراسة الصراع الاجتماعى · والواقع أننا لا نجد مبررا واحدا للدفاع عن هذه النقطة ·

ولقد أشرت فى مطلع هذا الفصل الى أننا مانزال نفتقد حتى الآن وجود نظرية سوسيولوجية متكاملة فى الصراع · بيد أن الدراسات الحدثية التى تتناول الصراع تقدم اسهامات هامة على الأقل بالنسبة للنظرية السوسيولوجية بمعناها الواسع · فلقد بدأت دراسات الحرب ـ وهى من أكثر الدراسات تقدما فى الوقت الحالى ـ تهتم بجمع الشواهد التاريخية والاحصائية اللازمة لاجراء أى تحليل سببى ، كما أمكن الافادة منها (أى الشواهد) فى صياغة نماذج للصراع ، تلك النماذج التى أسهمت فى تقدم البحث برغم الثغرات التى مازالت تنطوى عليها · واذا كانت هذه الدراسات لم تتوصل حتى الآن لصياغة نظرية

---

(٣٦) يشير « مشروع كاميلوت » السيء الحظ الى بعض هذه القضايا ، ويمكننا أن نجد تحليلا اضافيا لأهم نتائجه فى :

Irving L. Horowitz, " The Life and Death of : Project Camelot ", Transaction, Vol. 3 (1965); and by Ralf Dahrendorf, Essays in the Theory of Society (Stanford, 1968).

وقد يتضح الجانب الحاسم فى هذا المشروع ، اذا ما افترضنا ان الحكومة الكوبية قد تبنت وموّلت مشروعا آخر بهدف اجراء دراسات منظمة تتناول انتفاضات الزنوج فى المدن الأمريكية وذلك بهدف مساعدتهم ·

عامة للحرب ، الا انهـا (أى الدراسات) قد ألقت الضوء على مدى تعقد هـذه الظاهرة ، وتوصلت الى بعض الأسباب التقريبية مما قـد يساعد على التحكم فى مثل هذا النمط من الصراع · ويجب أن يظهر جهد فكرى مماثل فى دراسة أنمـاط الصراع الأخرى كالصراع الطبقى والحركات الثورية والصـراع الصنـاعى والصـراع العرقى ، على الرغم من أن دراسة هذه الظواهر قد تنطوى على صعوبات أكبر بسبب غموض الهدف من القيـام بها وعـدم الرغبة القوية فى الافادة من نتائجها · والواقع أن بالامكان الافادة من مناهج دراسة الصراع الدولى عنـد تناول العلاقات بين الجماعات والقطاعات المختلفة داخل المجتمع الواحـد ، طالمـا أخذنا فى اعتبـارنا الصعوبات المرتبطة بوصف أشـكال الصراع بالايجابيـة أو السلبية ·

وربما كان أوضح الانجازات التى حققتهـا الدراسات الحديثة فى الصراع تغير تصوراتنا العـامة عن طبيعة النسق الاجتمـاعى · فلم يعد ممكنـا الآن قبـول المبالغـة فى مظاهر الانسجام الاجتمـاعى والتكامل والتوازن ، وتبنى نظرة استاتيكية للبنـاء الاجتماعى كما حدث خـلال العقود الثلاث الماضيـة تحت تأثير النزعة البنائية الوظيفية · والواقع أن مصطلح الانحراف Deviance (وهو من أسـوأ المصطلحات السائدة فى علم الاجتماع) لم يعد يستطيع التعبير عن مختلف صـور الاشـياء والصـراع والتمرد والكبح التى تحـدث فى كل المجتمعات ، تلك الصور التى لا نستطيع استيعابها دون فهـم الأبعـاد الكثيـرة التى تتضمنهـا المجتمعـات السـريعة التغير خـلال القرن العشـرين · اذن الصـراع يمثـل جانبا أصيلا فى الحيـاة الاجتماعية ؛ لأنه قـد يؤدى الى تقوية الجمـاعات الاجتماعيـة أو تعديلهـا أو الاطاحة بهـا · ومن ثم فاننـا لا نستطيع معالجة الصراع معالجة دقيقة اذا ما نظرنا اليه على أنه سمة ضئيلة واستثنائية تميز العلاقات الاجتماعية كما كانت تفعـل نظـرية التضامن الاجتماعى حينما كانت تشير اليه بطريقة اعتذارية · وسـواء شئنا أم أبينا ، فان علينا توجيه مزيد من الاهتمام لدراسة صراع المصالح والمذاهب الفكرية ، والكشف عن دور العنف فى تدعيم النسق الاجتماعى أو الاطاحة به ؛ وذلك اذا ما أردنا تقديم تفسير مقنع للأحداث وتوضيح

الوسائل والأساليب التى من خلالها يختار الناس مجريات أفعالهم من بين البدائل المختلفة • وفضلا عما سبق فاننا بحاجة الى تحرير الفكر الاجتماعى من بقايا ما يمكن أن نطلق عليه « ايديولوجية الاتفاق أو الانصهار » التى تفترض امكان حل مشكلات التفاوت فى الثروة والسلطة والاستمتاع دون احداث أية تغيرات أساسية على بناء المجتمع •